أثر التفكك الأسري في اضعاف القيم الدينية والأخلاقية عند الأبناء

د. سرور قاروني

عضوة مجلس إدارة جمعية البحرين النسائية – للتنمية الإنسانية

مديرة برنامج "كن حرا" لحماية الطفل من الاعتداء و الإهمال بجمعية البحرين النسائية

هاتف: 0097339004020، فاكس: 0097317911790 ، ايميل: Cheeerup@hotmail.com

ص. ب. 31219 ، البديع، البحرين

www.befreecenter.org ،www.bahrainws.org

ورقة عمل مقدمة لمؤتمر الدوحة الثامن لحوار الأديان

دولة قطر

أكتوبر 2010

مقدمة:

منذ بدأ التاريخ الإنساني، كان للأسرة دوراً محورياً في حياة الأبناء، فكانت هي مصدر الحماية الوحيد لهم والمصدر الأهم للمعلومات والجهة الأولى لشعور الأبناء بالثقة والاعتزاز والقيمة وتشكيل الهوية وبناءها بل وتكاد أن تكون الوحيدة. وقد تغير هذا الدور مع تطور التكنولوجيا، ووصل ذروته في السنوات العشر الأخيرة بانتشار الفضائيات والمواقع الاجتماعية على الإنترنت حيث أصبح الوقت الذي يمضيه الأبناء بينها يفوق الوقت الذي يمضونه مع أهلهم وذويهم، إلى جانب ما تفرزه الكثير منها من أفكار وسلوكيات وثقافات بعيدة عن القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، يتم عرضها بغلاف مثير وجذاب وهي تبطن الكثير من المخاطر والتحديات و المفاهيم والقيم المغلوطة.

ويشكل ذلك تحدياً كبيراً للأبناء والأسرة معاً ويضيف حملاً إضافياً على الوالدين، فتزيد أهمية وعيهم بخصائص المراحل العمرية لأبنائهم في ظل التحديات الراهنة والذي يلعبون هم فيها دوراً هاماً في غرس القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية من جهة، واعطاء الأبناء نموذجاً ناجحاً للعاطفة المتوازنة بين الرجل والمرأة والتي يجب أن تقام على أساس متين قاعدته الزواج. ففي حال تفكك الأسرة، سواء كان ذلك من خلال الطلاق الشرعي أو الطلاق الصامت أو الشجار أو العنف الأسري، فإن نموذج الأسرة والعلاقة الزوجية ينتابه التشويش في أذهان الأبناء، بالاضافة إلى فقدانهم للمصدر الرئيسي والطبيعي الذي هيئه الله تعالى لهم ليستقوا الحب والحنان والقيم والأخلاق، لكي لا يحتاجوا للبحث عن بدائلها خارج الأسرة فيتيهون ويسقطون فريسة للمعتدين والمتلاعبين والمستغلين لهم ولحاجاتهم ولنقصهم، فالأسرة المفككة ليس لديها التماسك اللازم لحفظ الأبناء واجتذابهم لها.

التفكك الأسري:

حينما كان نمط الحياة عند الكثير من الناس يسوده نظام الأسر الممتدة، كانت العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة أكثر قوة ومتانة، وعليه كان لدى الأبناء فرص متعددة للشعور بأن هناك من يعتني بهم، حتى ولو كان الأب والأم أو أحدهما مشغولون عنهم ولا يولونهم اهتماما كافيا لأي سبب من الأسباب، إذ الاعتماد في التربية لم يكن محصوراً فقط على الوالدين، بل يتدخل أفراد العائلة بأشكال مختلفة، وكثيراً ما يحصل الأبناء على أناس يشعرون معهم بالراحة لمشاركتهم أسرارهم وهمومهم ومخاوفهم وآمالهم.

ومع تحول نمط الحياة إلى الأسر النووية، فقد الأبناء هذا الرابط وأصبح الوالدين هما الطرفين الأكثر تواجداً والأكثر احتكاكاً في حياة الأبناء، ويكادان يكونان هما النموذج الوحيد الذي يراه الأبناء بتفاصيله الدقيقة للحياة الزوجية والعلاقات الأسرية، وهذا ما يجعل دور الأب والأم وعلاقتهما معاً أكثر خطورة وأكبر أهمية من أي وقت آخر مضى.

والتفكك الأسري يؤخذ في كثير من الأحيان على أنه الوضع الذي يحصل بعد الطلاق حيث يعيش الأب والأم منفصلان، ويكون الأبناء إما عند أحدهما أو مشتتين بين الاثنين، ومع أن هذا وضع صعب وتعتبر فيه الأسرة مفككه، إلا أن ما لا يقل ضرراً وأهمية من الطلاق، هما الزوجان دائمو الشجار، والتي تفتقر علاقتهما للمحبة والعشرة الحسنة، وكذلك الزوجان اللذان يعيشان حياة منفصلة روحياً مع أنهم يعيشون معاً تحت سقف واحد وفي بيت واحد، فهم معاً بأجسادهم، يعيش كل منهم حياته منفصلاً عن الآخر دون تواصل بينهم ولا أمور مشتركة ولا حوار. نموذج أخر للتفكك الأسري هو الطلاق الصامت الذي يسود الكثير من الأسر، والذي يصل الحال بالزوجين من اليأس من التغيير وإصلاح العلاقة لدرجة أنهم يقرران أن لا جدوى من الحديث معاً، وفي ذات الوقت لا يودان الطلاق لأسباب مختلفة.

الثقافة والانتماء:

لقد تدخلت العولمة و الفضائيات والانترنت في تشكيل انتماء الأبناء ووسعت دائرته من الأسرة والبلد والمجتمع والدين إلى انتماءات مختلفة لمجموعات وأفكار وأمور أخرى. فعلى مدى التاريخ كانت ثقافة الأبناء هي امتداد لثقافة الآباء والتي كثيراً ما تكون متشابهة بشكل كبير في الأسرة والقبيلة والمجتمع، فكثيراً ما يكون مصدر المعلومة متشابه، ويأخذ الشخص عزته وأمنه من انتماؤه لأسرته ومجتمعه وثقافته، كما ويعتبر الدين عنصراً أساسياً يجمع الأفراد والمجتمعات وله دوراً هاماً في تشكيل انتماء الأسر ومنها الأبناء حتى في البلدان التي تتعدد فيها الديانات.

والصداقات كانت منذ بدأ التاريخ لغاية السنوات الأخيرة، تعني العلاقة الوطيدة والمتواصلة والتي لم تكن ممكنة بغير اللقاء الذي يتيح للأصدقاء تبادل الحديث والتواصل وجهاً لوجه، كما والصداقات العابرة للحدود كانت محدودة جداً وهي عادة متعلقة بالكبار دون الأبناء، فهم من لديهم القدرة على السفر والبقاء خارج أوطانهم لفترة من الزمن يتعرفون فيها على أناس مختلفين من الممكن أن يزوروهم من وقت لآخر. وإذا ما تأملنا علاقات الأبناء الآن، لوجدنا أن في الكثير من الدول التي فيها خدمات الإنترنت والهاتف المحمول و من ضمنها أكثر الدول العربية، فإن جلّ مستخدميها هم الأبناء والذين قد يكونوا صغاراً في السن حين الشروع في استخدام هذه التكنولوجيا. وتشير الدراسات بأن من أكثر الأمور التي يميل الأبناء للعمل عليها على الإنترنت هي شبكات التواصل الاجتماعي كالفيس بوك والماي سبيس وغيرها كالمسنجر وأشباهه والتي يقضي فيها الأبناء ساعات طويلة تفوق الساعات التي يقضونها مع آبائهم وأسرهم في حوار مستمر، يتعلمون ويستقون منهم ثقافات وعادات وأساليب حياة ومفاهيم مختلفة.

فمع الهشاشة التي يعيشها الكثير من الأبناء في بنية ثقافتهم وعدم شعورهم بالانتماء والفخر بها، يكون من السهل على الأبناء أن يقتبسوا من الآخرين صفات وعادات ومفاهيم تسيء إليهم وتنزل بمستواهم الأخلاقي والإنساني، فالأبناء يميلون للمرح والإثارة والحياة السهلة، وبما أن الأسرة هي المكان الذي وهبه الله للأبناء وسخره لبناء الأسس القوية في شخصيات الأبناء، لتحتضنهم وتجذبهم وتشعرهم بالقيمة والأمان وتوفر لهم

الجو المرح والمرونة التي تشعرهم بالرغبة في الحياة، فهذه الأسس من الصعب أن تتوفر في الأسر المفككة إذ أن قوام هذه الأسس هو المحبة والانسجام والوئام الأسري والذي عموده الفقري علاقة الزوجين معاً.

القيم الإنسانية والقيم الهوليودية:

إن جميع الديانات السماوية لها ذات الروح ولو اختلفت التشريعات، فجميعها تقدس القيم الإنسانية كالصدق والأمانة واحترام الآخر والمساواة في الإنسانية والعدل وغيرها من القيم التي لا يختلف على أصلها اثنان وهي مفطورة في الإنسان يتعرف عليها الطفل الصغير دون أن يتلقى أي تعليم أو تدريب على ذلك. وتلاقي المجتمعات، الغربية ومنها الشرقية، هجمة كبيرة مكثفة لإعطاء أولوية للقيم الهوليودية التي تركز على المال والجنس والجمال، والتي في سبيل الحصول عليها، تبيح العنف والغش ودهس أي قيمة من القيم الإنسانية، فالهدف هو الحصول عليها، وتبقي كيفية الوصول لها مفتوحة لمخيلة الشخص. والأبناء هم المتضرر والمتأثر الأكبر من تلك الهجمة، إذ هم الذين لم يعيشوا فترة ما قبل هذه الهجمة التي تأتي من الإعلام بمختلف أنواعه، ولا تعتبر دخليه عليهم بل هي مواكبة لحياتهم، فهم يتغذون عليها باستمرار بطرق مشوقة ومؤثرة، فهناك العديد من الفضائيات التي كرست نفسها لعرض الأفلام خلال أربع وعشرون ساعة متواصلة دون توقف، بقصص ومشاهد وتمثيل وإخراج جذاب ومثير بعضها مدروس بشكل جاد من قبل علماء نفس لإيصال أفكار معينة بأشكال محددة.

اختلال مفهوم القدوة:

الكثير من الأبناء يقتدون بأفراد لا ينتمون إلى ثقافتهم، ولم تعد معايير القدوة تتعلق بالشجاعة والنبل والكرم والعلم وغيرها من القيم التي كانت الأجيال السابقة تعتبرها مظهراً من مظاهر الفخر والاعتزاز وتحب أن تتصف بها، بل والكثير من الأبناء لم يعد يعرف عن الأفراد الذين اتصفوا بهذه الصفات، إذ أن مصادر المعلومات التي يتعرضون لها والتي تشكل غالبيتها القنوات الفضائية والعوالم الافتراضية على الإنترنت، لا تركز على هذه النماذج وهذه القيم، بل تميل أكثر للقيم الهوليودية واللامبالاة والتركيز على الفردية بدل الروح الجماعية، والأخذ بدل العطاء.

إن مفهوم القدوة بشكله المتداول الآن في أوساط الكثير من الأبناء يتأثر تأثيراً إيجابياً في الأسر المتماسكة والتي تمارس القيم وتطبقها في حياتها اليومية ولا تناقض نفسها بحيث تنصح أبنائها شيئاً وتقوم هي بما يعاكسه، خاصة القدوة في العلاقات وحل المشكلات والعطاء بأشكاله بما فيه التعامل بالمحبة، والتي عادة ما تفتقر لها الأسر المفككة.

التفكك الأسري والتهديدات في حياة الأبناء:

إن التفكك الأسري بأنواعه ينتج عنه تحديات وتهديدات لحياة الأبناء وفيما يلي أهمها:

التوازن العاطفي:

خلق الله سبحانه وتعالى الأبناء برغبة وحاجة ملحة حيوية للمحبة والاحتضان من أبويهم لكي تتزن شخصياتهم وعواطفهم، فالطفل منذ ولادته وهو يرضع بالتصاق شديد بأمه، وحاجته للعطف والحنان لا تقل وإن اختلفت صيغتها في مراحلها العمرية المختلفة، ففي حال التفكك الأسري يكون الوضع العاطفي في الأسرة مختل ويصل هذا الخلل للأبناء ويترك تشويهاً في شخصياتهم من الصعب تداركه بسهولة.

المثل الأعلى:

تشير الدراسات بأن الأبناء الذين يعيشون بين أبوين علاقتهما مشحونة بالغضب والكره والشك والتنافر، أو حتى أحدها، يفتقدون المثل الأعلى للعلاقات السليمة بعيدة الأمد وكيفية الحفاظ عليها ودوام استمراريتها، فتنعكس على علاقاتهم الحالية مع الآخرين وخاصة مع أبويهم ناهيك عن حياتهم الزوجية المستقبلية.

القدرة على حل المشكلات:

إن المصدر الأساسي للأبناء لتعلم مهارات الحياة والتعامل مع الظروف الصعبة هو ما يتعلمونه من تصرف آبائهم بالدرجة الأولى ومن ثم من النماذج الأخرى التي لها تقدير واحترام بالنسبة لهم، فلا ينفع نصح الأبناء بحل مشكلاتهم في العلاقات مع الآخرين بالمنطق حين تكون طريقة حل مشكلات أبويهم في علاقتهم تركز

على الإيذاء والشجار، ومن الصعب أن ننصح الأبناء بأن يتمسكوا بالقيم الإنسانية حين يستخدم الآباء الكذب والنميمة والافتراء كوسيلة للنيل من الآخر. ففي الأسر المفككة، يتعرض الأبناء إلى نماذج سيئة في حل المشكلات المختلفة، ترسخ في أذهانهم مفاهيم مغلوطة عن القوة والسيطرة والتعبير عن الذات وبسط الإرادة.

الشعور بالأمن:

إن من أكثر المشاعر بديهية لدى الإنسان حاجته للشعور بالأمن، وتزداد هذه الحاجة لدى الأبناء لاعتمادهم التام على أبويهم في هذا الجانب ولمعرفتهم بعدم قدرتهم على توفير الأمن لأنفسهم دون مساندة شخص كبير يحبهم ويهتم إليهم، ويتأثر هذا الشعور عند الأبناء الذين يعيشون التفكك الأسري، فالطلاق أول ما يهدم الشعور بالأمان لدى الأبناء ولا يكون ذلك بعد الطلاق فحسب، بل في المراحل الأولى حين تبدأ إجراءات الطلاق، حيث يدخل الأبناء في دوامة المجهول. وأما الذين يعيشون الشجار أو العنف الأسري، فهم لا يعرفون متى سيدخل المنزل في مشاحنات ويعلو الصراخ أو العنف، فيشعرون بفقدان السيطرة على حياتهم والتخطيط حتى للساعات القادمة، مما يجعل العديد من الأبناء يسلكون مسالك خطيرة ليسترجعوا بعضاً من شعور السيطرة على حياتهم وعلى ما يريدون.

الاهتمام ومصدر الشعور بالذات:

خلق الله الإنسان ليكون له دوراً في الحياة وأعمار الأرض، ولا تكون حياته على هامشها، لذلك أودع فيه الرغبة بالشعور بأهمية ذاته وأنه إنسان مهم وجوده لا يتساوى مع عدمه، وهو يحتاج لأن يقتنع بذلك ليبدأ مسيرته، وهذا ما تغذيه الأسرة السليمة في الأبناء وتبني قواعد شخصياتهم لكي تقاوم الإغراءات والغرور والشعور بالتفاهة وإتباع الآخرين دون تفكير وغيرها من الأمور التي تجذب الأبناء الذين لم يلقوا ذواتهم ويحصلوا على الاهتمام الكافي عند والديهم فيبحثوا عن ذلك بعيداً عن الأسرة وفي الأجواء الافتراضية كالإنترنت.

تأثير التفكك الأسري على القيم الدينية والأخلاقية:

إن الوضع الحالي لعدد كبير من الأبناء هو وضع صعب، فعليهم أن يدخلوا في اختيارات صعبة ويختبروا أنفسهم بشكل يومي ودائم، ففي الأمور الكثير من الضبابية، ومنها القبيح المغلف بأغلفة جذابة وجميلة تجذبهم، ونظراً لحداثة سنهم وقلة تجربتهم، قد يصعب عليهم أن يفهموا ما تخفيه تلك الأغلفة، فينجذبون إليها وقد ينغمسون فيها. وفي حال الأسرة المفككة، فالرقابة السليمة والعلاقات التي تساعد في أن يبادر الأبناء لمشاركة آبائهم وطلب المشورة منهم تكون في أضعف حالاتها، ففيها تحدي للأبناء الذين يعيشون في أسر متماسكة، فما بال الأبناء الذين يعيشون في أسر مفككة ويفتقرون إلى المحبة والاهتمام والأمان الطبيعي في أسرهم، فتزداد خطورة تميع القيم الأخلاقية حين تكون الحاجة ماسة بالنسبة لهم للشعور بالأمان أو المحبة أو الاهتمام أو حتى المغريات المادية، وذلك ليس لأنهم أشراراً أو سيئين، بل لأنهم ضعفاء في مقابل الإغراء وأحياناً الابتزاز الذي قد يتعرضون له، ولفقدان القدوة التي تساعدهم في المضي على الطريق الأخلاقي وتحمل بعض الصعاب في سبيله وعدم اختيار الطرق السهلة وسريعة الوصول إذا كان الثمن الذي يدفع في المقابل هو البعد عن أساسيات القيم الأخلاقية والإنسانية التي أسستها جميع الأديان.

فهناك من الأبناء الذين لم يعرفوا قصصاً عن التصرف الأخلاقي والإنساني إلا في الكتب المدرسية التي قد تعرض قصصاً ثرية للأنبياء والصحابة والصالحين، ولكن بشكل جاف لا يقرأها الأبناء لفهمها واستشعارها والاقتداء بها، بل لحفظها واسترجاعها وقت الامتحان. ومع انشغال الآباء والتفكك الموجود في بعض الأسر وانحسار دور العائلة الممتدة وخاصة الجدات والجدود، تقلصت فرص الأبناء للاستماع إلى القصص ذات المغزى الإنساني والديني والأخلاقي، ومعها قلت النماذج المشرقة التي من الممكن أن يتعرف عليها الأبناء، وتصبح النماذج الأخرى التي لا تركز على تلك القيم الراقية هي المتواجدة بشكل أكبر في ذاكرة الأبناء مما يشكل تهديداً كبيراً لشخصياتهم ومفاهيمهم عن الحياة والنجاح والتميز والسعادة.

الخلاصة:

يمر الأبناء في مختلف أنحاء العالم بصورة عامة، وفي الدول الإسلامية بصورة خاصة، بتحديات خطيرة تهدد هويتهم وانتماءهم الثقافي والديني والأخلاقي، وذلك لانشغال الآباء في أمور الحياة المختلفة، تمضية وقت أقل مع الأبناء والحديث معهم، وانحسار دور الأسرة الممتدة، ودخول ثقافات مختلفة على الأبناء من خلال القنوات الفضائية والانترنت، ليسوا مستعدين لفهمها وترك الغث منها وانتقاء السمين، وأيضاً لجهل الكثير من الآباء في تقنيات الانترنت فلا يعرفون ما يتعرض له أبناؤهم، فيصعب على الأبناء مشاركة آباؤهم في ما يفعلون على الإنترنت خوفاً منهم تارة وشعورهم بعدم مقدرتهم على المساندة تارة أخرى.

وتزداد تلك التهديدات لدى أبناء الأسر المفككة حيث يعيشون مخاطر إضافية متعددة، فهم قد يفتقدون للمشاعر والمفاهيم الأساسية كالشعور بالأمان والمحبة ومعنى العلاقات البعيدة الأمد وغيرها من المشاعر و المفاهيم التي تتكفل الأسرة بتركيبتها الطبيعية بغرسها في الأبناء بعلاقة الوالدين معاً ومع الأبناء، وكذلك الأسرة الممتدة والأجواء الأسرية وطرق التفاهم والحوار.

وللدين والقيم الأخلاقية والإنسانية دوراً أساسياً في استحكام الأسرة والتي هي أساس بناء شخصية الأبناء، وفي المقابل حين يكون بناء الأسرة هشاً وتكون الأسرة مفككة، يعيش الأبناء تحدياً أكبر من أقرانهم للتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية خاصة في الأوقات العصيبة وحين التعرض لمغريات تجذبهم لتشعرهم بالاهتمام والتميز وتعطيهم المشاعر الأساسية التي يفتقونها.